الصيام والعمل لدين الله تعالى

يومك وليلك في الصيام هو لله تعالى: في المسند عن عبد اللَّهِ بن عمْرٍو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الصِّيامُ والْقُرْآنُ يشْفَعَانِ لِلْعبْدِ يوم الْقِيامَةِ يقول الصِّيامُ أي ربِّ منَعْتُهُ الطّعَامَ والشَّهوَاتِ بالنَّهارِ فيشفعني فيه وَيقولُ الْقرْآنُ مَنَعْتهُ النَّومَ باللَّيْلِ فشفعني فيه قال فَيشَفَّعَانِ).

بل حياتك كلها يجب أن تكون لله: "قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ".

= فالإسلام هو الدينَ الذي اختاره اللهُ للبشرية كلها، وهو أثمنُ هبةٍ للبشرِ واعظمُ منةٍ عليهم:

١= قال تعالى: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسلام دِيناً"، أي نعمةٍ أعظمُ و أتمُ من أن تتنزلَ ملائكةُ الله بكلمات الله على رسول الله لتقول للإنسان هذا طريقُك إلى الله.

٢= وقال تعالى: "وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"، إن هذه الإلهيَة هي مِنَّةٌ تستشعرُ نفوسُ المؤمنين عظمتها، فتتضاءلُ النفسُ أن تكونَ ثمناً لهذه النعمة.

٣= وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان –فذكر منهن– وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار).

= ولذا حفلت مسيرة المؤمنين في التاريخ بصور من عطاء الحياة بسخاوة نفس ثمنا لهذا الدين:

استمع إلى سحرة فرعون وهم يتقبلون وعيده لهم: "فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى"، فماذا كان جوابهم على هذا التهديد والتنكيل؟ استمع إلى جواب السحرة وهم يقدمون للدين أرواحهم بسخاوة نفس: "قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا، فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا"، فما أصغر الحياة وما أهون الحياة الدنيا حين تكون ثمنا للإيمان بالله عز وجل: "إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ، وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى"، إنه العطاءُ للدينِ سخياً غايةَ السخاء.

أولاً: العمل للدين قرين الانتماء إليه.

هذه القضية كانت واضحة محسومة في عقيدة الجيل الأول، فبمجرد أن يبايع أحدهم النبي صلى الله عليه وسلم على شهادة التوحيد؛ كان يستشعر بعدها مباشرة أن هذه البيعة قد ألبسته لباس الجندية، ليعمل لهذا الدين.

١= قصة الطفيل ابن عمرو الدوسي رضي الله عنه حين جاء إلى مكة في أوليات الدين.

كانت قريش تضرب حول هذه الدعوة سياجا شائكا من الحرب الإعلامية[١]، فكانت تحذر كل وافد إلى مكة بعبارة: (نحذرك غلام بني عبد المطلب، إنه يقول كلاما يسحر به من يسمعه، فيفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، فاحذره)، وتلقى هذه الدعاية الطفيل بن عمرو الدوسي، فخاف، حتى وضع القطن في أذنيه، ثم دخل الحرم، ويشاء الله أن يسمع قراءةَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم، فسمع كلاما لم يسمع مثله قبل، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه

[١] الحرب الإعلامية تكتيك يمارس ضد الدعوة إلى دين الله ورسالات الله من القديم وإلى اليوم، ونحن اليوم نرى نماذج للحرب الإعلامية القذرة الدنسة في الصحافة ضد حاكمية شريعة الله، فَيُتَّهَمُ المشايخ بالإرهاب وقلب نظام الحكم في بلادٍ قُلِبَ فيها نظام الحكم مرارا !!!

وسلم وقال: (إني قد سمعتُ قولَ قومَك فيك، وإني أحبُ أن أسمع منك، فاعرض عليَ ما عندَك، فعرض عليه الرسولُ صلى الله عليه وسلم الإسلام وعلَمهُ القرآن، فآمن مكانه).

بإمكانِك أن تتساءل: كم تعلم الطفيل من شرائع الإسلام البسيطة حين إذٍ، إلا أنه بمجرد أن أسلم الطفيلُ؛ شعر بهذه المسؤولية للتو، فقال: (يا رسولَ الله، إن دوساً كفرت بالله، وانتشر فيهم الزنى، فأرسلني إليهم)، فأرسلَه الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم، ودعا الله أن يجعل له آية، فكانت آيته نور في وجهه، فإذا وجهه يضيء كأن في وجهه سراج، فقال يا رب يراها قومي فيقولون مُثلة، اللهم أجعلها في سوطي، فانتقلت إلى سوطه، فكان يحرك سوطه وفي طرفه مثل القنديل. وعرض الطفيل الإسلام على قومه، فأسلم بعض قرابته، واستعصت عليه عشيرته، فماذا فعل؟ هل شعر بأن هذا أمر طبيعي لا يستثير وجدانه ولا يحرك وجدانه؟ كلا، فقد ثارت في نفسه الغيرة على الدين، فعاد إلى النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً له بحرقة: (يا رسول الله، إن دوسا قد كفرت بالله، فأدعو الله عليهم). فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه الطاهرتين المباركتين –التي ما دعت يوماً بإثم ولا قطيعة رحم–، وقال: (اللهم اهدي دوساً، اللهم اهدي دوساً، اللهم اهدي دوساً، واءت بهم).

والشاهدُ من هذه القصةُ استشعارُ الطفيلِ رضي اللهُ عنه بمجردِ أن دخلَ في الدين مسئولية الدعوة إليه. فمنذ كم دخلنا في هذا الدين وما مدى استشعارنا لهذا الأمر؟ سؤال ندع الإجابة عليه إلى أعمالنا وهواجس قلوبنا.

٢= أبو ذر رضي الله عنه جندب إبن جناده: هو أعرابي جاء من قبلة غفار، كان ربع الإسلام، فقد كان في يوم من الأيام رابع من أسلم على ظهر الأرض، وهو حين أسلم مبكراً أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يغادر مكة، لأن وجوده بين ظهراني المسلمين في مكة غير آمن، فهو غفاري، وليس بقرشي، فليلحق بقومه، فماذا فعل؟ قال: (والله لا أخرج من مكة حتى أصرخ بها بين أظهرهم). لقد كانت قريش تبني حاجزا ضخما من الصمت يحيط بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتهون من نجاحاته الدعوية، كما تهون إسرائيل من نجاحات صواريخ المقاومة الغزاوية، فيتحمل أبوذر مسؤولية تقديم عمل ما للدين، هو تحطيم حاجز الصمت الذي تبنيه قريش، فيغدو إلى الحرم وقريش حوله، فيصرخ بصوته الجهوري: (أشهد لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله)، فيدوي نداؤه في مكة، ويوشك أهل مكة أن يقتلوه من الضرب المبرح، فيخاطب العباس رضي الله عنه في قريش حسها التجاري، قائلاً: (كيف تقعون برجل من غفار، وقوافلكم تمر بأرضهم ذاهبة وآيبة؟ والله لأن مسستموه بسوء ليقطعون عليكم الطريق إلى الشام)، هنا فقط توقفوا، ولكن أباذر لم يكتف بذلك، بل عاد من الغد، وفعل كما فعل أولا، وثارت إليه قريش كما ثاروا بالأمس، فيقوم العباس مدافعاً ومحجزاً عنه، ويقول لقريش: (إنه رجل من غفار، وقوافلكم تمر بأرضهم ذاهبة وآيبة، فدعو الرجل يلحق بقومه)، ويخلّص أبو ذر، وعاد أبو ذر ثالثا، وليس على يقين أن العباس سيخلصه المرة الأخرى، ولكنه على يقين أنه بعمله ذلك يقدم عملا إيجابيا للدعوة، فإذا به ينادي ثالثا، فيثورون إليه ويطردونه من مكة، فيمم شطر قومه غفار، فماذا فعل عندهم؟

لقد بدأ بأسرته وقرابته فدعا أمه ودعا أخاه ثم هب إلى قبيلته يدعوها فاسلم نصفها، أما النصف الأخر فقالوا: أليس صاحبك (يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم) قد أمرك أن تذهب فإذا سمعت بأنه قد ظهر أن تلحق به؟ قال نعم، قالوا نحن إذا ظهر آمنا به، ولحقنا به، أما الآن فننتظر، فلما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم آمنت غفار كلها،

وأسلم بنو عمهم؛ قبيلة أسلم، وأتى وفدهما المدينة مبايعين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله).

هذا الإنجاز تحقق على يد رجل اعتقد أنه ربع الإسلام، ربع العالم الإسلامي في وقته لم يحمل من النبي صلى الله عليه وسلم إلا التوحيد، ولكن حمل مع التوحيد الاستشعار للمسؤولية اتجاه هذه الرسالة، واتجاه هذه العقيدة وأن دخوله لهذا الدين يستوجب العمل له.

٣= أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ رضي اللهُ عنهما: لما جهزت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكرٍ جهازهما للهجرة، جمعت سفرةَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم التي فيها طعامُه، والسقاءَ الذي فيه شرابُه، ثم جاءت لتحملَهما فلم تجد ما تربطُ به السفرةَ والسقاء، فعمدَت إلى نطاقِها فشقته نصفين، فربطت بأحدهما السفرةَ وبالأخرِ السقاء، امرأةُ تأبى إلا أن تقدم للدين، وتعطيَ للدين، ولو كانت لا تملكُ إلا نطاقها فليكن عطاؤُها هذا النطاق، وإذا لم يكن النطاقُ كافيا فليشقَ النطاقُ نصفين، وتحملُ صفحاتُ التاريخ هذاِ الخبرَ، ومعهُ تشريفُ أسماء وتلقيبُها بذاتِ النطاقين، لقبَ يعبرُ عن العطاء للدين، مهما كان هذا العطاءُ قليلاً، فهو الجهدُ وهو الطاقة.

٤= ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه:

يأتي ضمام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله عن الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، حتى إذا عرفها؛ آمن بها، ثم قال: (يا رسول الله، والله لا أزيد على هذه ولا أنقص)، ثم ينقلب إلى قومه داعيا لهم إلى الله، يقول لهم: (يا قوم، بئست اللات، بئست العزى)، فيظل بين ظهرانيهم داعياً إلى الله، حتى دخلوا جميعاً في الإسلام، فيقول عمر رضي الله عنه: (ما رأينا قادما على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أيمن، من ضمام بن ثعلبة).

٥= مؤمنو الجن:

قال تعالى: "وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ. يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ" (الأحقاف:٢٩-٣١)

إن وضوح هذا المعنى للصحابة هو الذي دفع كتائبهم فانداحت بها الأرض، فإذا مائة سنة تشهد أعظم إنجاز يتحقق على الأرض يوم طوي بساط المشرق إلى الصين، وبساط المغرب إلى المحيط الأطلسي تفتحه كتائب الصحابة والتابعين، ما كان هذا الإنجاز ليتحقق إلا على أيدي الرجال الذين يعلنون في كل موقعة قائلين: (إن الله إبتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد)، ولم يكن هذا الإنجاز ليتحقق إلا على أيدي رجال استشعروا المسئولية تجاه الدين. وهذا المعنى هو الذي خَفَتَ في نفوسِ كثيرٍ من المسلمين، وضَعُفَ في نفوس الشباب المتدين.

أين توتر القلب وانفعاله تجاه كل اعتداء على الدين أو المتدينين؟

أين اعتصار القلب ألما وحرقة على لمز الإعلام للدعاة وغمزهم؟

أين الحسرة والتحسر على انتهاك حرمات الله ليل نهار؟

ثانيا: العمل للدين وظيفة العمر.

العمل للدين ليس مؤقت بوقت ولا محددا بزمان ولا مكان وإنما هو وظيفة العمر كلها:

١ = **نوح:** هذا نوح عليه السلام يصف برنامجه الدعوي فيقول: "إني دعوت قومي ليلا ونهارا"، ويقول: "ثم إني دعوتهم جهارا، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا"، إنه الجهدُ الدائمُ الذي لا ينقطعُ ولا يمَلُ، ولا يفترُ ولا ييئسُ أمامَ الأعراضِ، ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاما، ماذا بقيَ من حياةِ نبيَ اللهِ نوح لم يسخَر لدعوته ولم يبذَل لرسالتِه؟ الليلُ والنهار، الجهر والإسرار، كلُها عمل لدين الله.

ثم يصفه الله بأنه: "ذرية من حملنا مع نوح، إنه كان عبداً شكوراً"، كأنه استشعر أن عمله لله نعمة من الله، تستوجب منه أن يحمد الله على أن استعمله في الدعوة إليه، فيكثر من حمد الله على ذلك، فكان عبداً شكوراً.

٢ = **يوسف عليه السلام:**

يوسف الذي القي به في غيابة الجب، ثم في غيابة السجن، يعاني في ظلمات السجن لوعة الغربة، وألم البعاد، وقهر الظلم، ومضاضة ظُلم ذوي القربى، ولكن مع هذا كله، مع هذه المعانات كلها لا ينسى أبدا دعوته وقضيته ورسالته، فإذا به يحول السجن إلى مدرسة للتوحيد، يتبين لنا فيها براعة الداعية، فيستقبل سؤال صاحبيه في السجن:

قال تعالى: "وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ. وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ. يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ. مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ" (يوسف:٣٦-٤١)

أولاً: يكرس حسن ظنهما به فيقول: (لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما).

ثانياً: يستغل تشوقهما للجواب على السؤال الذي طرحاه، فلا يجيب على السؤال مباشرة، ولكن يطرح القضية الضخمة التي تعيش في وجدانه، وهي رسالة التوحيد فيقول: (يا صاحبي السجن ءأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار)؟

ثالثاً: يندد بعقيدتهما الفاسدة، وعبادتهما الوثنية، فيقول: (ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وءاباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان). أسماء سميتموها ليس لها حقائق، حتى إذا كرس عقيدته وبين أنه بريء هو وأبوه وجده مما هم عليه وأنه أتبع الرسالة الخالصة الموحدة لله.

رابعاً: يجيب أخيراً على السؤال: (أما أحدكما فيسقي ربه خمرا، وأما الأخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه، قضي الأمر الذي فيه تستفتيان). قُضِي الأمر بعد ماذا؟ بعد أن ألقى عليهم محاضرة مملوءة بالأدلة والبراهين والتثبيت في التوحيد، سبحان الله! نبي في هذه المعاناة، ألم السجن، ألم الغربة، قهر الظلم، لوعة البعاد ومع ذلك تبقى قضية نبوته ورسالته وعقيدته والدعوة التي يحملها حية لا تخبو ولا تلين.

٣ = يعقوب عليه السلام:

يصف الله لنا مشهد وفاته، حاله وهو يموت كيف مات من كان عنده؟ ماذا قال؟ ماذا أنفذ وهو يودع الدنيا: (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت) وبنوه حولَه فماذا فعل؟ وماذا قال؟ (إذ قال لبنيه) ماذا قال لهم؟ الأموالُ كيف تجمعونها؟ القصورُ كيف تبنونها؟ الثروات كيف تكدسونها أم التركة كيف توزعونها؟ أم الزروع كيف تزرعونها؟ كلا ليس شيء من ذلك ولكن هم الدين وقضية التوحيد: (ما تعبدون من بعدي)، هذا الهم الذي بقي يقضا في قلبه وهو يودع الدنيا، (ما تعبدون من بعدي)، وهو الذي رباهم على التوحيد مذ منذ نعومةِ أظفارِهم، وعرف توحيدهم وصدقهم وإخلاصهم، ولكن الهمُ اضخم في القلب (ما تعبدون من بعدي)؟، ويجيء الجواب الذي يقر عينه: (نعبدُ إلهك والاه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون).

٤ = ثم انظر إلى حالِ نبينا وحبيبنا وإمامنا وقدوتنا صلى الله عليه وسلم:

الذي قضى ثلاثاً وعشرين سنةً في جهدٍ وجهاد وصبرٍ ومصابرةٍ، بعد هذه المسيرةِ الحافلةِ في بلاغ رسالات الله، وبعد أن اعذر إلى الأمة بأنه قد بلغها دينها وأدا إليها الأمانة التي أتمن عليها، تهي للحاق بالرفيق الأعلى والمحل الأسنى:

١/٤ فإذا به في أخرِ عُمرِه يصاب بالحمى التي تستعر في بدنه خمسة أيام حتى إن حرارة بدنه يحس بها من يضع يده على الأغطية وهو متغطي بها صلى الله عليه وسلم، ويقول ابن مسعود: (يا رسول الله إنك لتوعك كما يوعك رجلان منا، قال نعم ذلك أن لي أجر أثنين)، وحتى كان الماء يحمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرب يصب على بدنه ليطفئ استعار الحمى في بدنه، بدنُ استعرت فيه الحمى وأنهكَه المرض، وانهزمت فيه العافية، ولكن هم الدينِ، وهم الدعوة والعمل لا ينهزم في البدن الذي انهزمت فيه العافية، ولا يخبو في البدن الذي أنهكه المرض ..

فإذا به صلوات الله وسلامه وبركاته عليه يذكرُ هم رسالتِه في أخرِ يومٍ يعيشُه على الدنيا، فيخرجَ إلى الأمةِ يومَ الاثنين، اليومَ الذي مات في ضحوته، إن شئت فقل في أخرِ ساعاتِ حياته، يخرج يتفقدُ أمتَهُ! أين تفقدها، في الأسواق؟ كلا، تفقدها وهي تصلي لله في أخرِ فرضٍ تصليه أمةُ محمد صلى الله عليه وسلم ونبيُها حيُ على الأرض، يتحاملُ صلى الله عليه وسلم على الجسدِ الواهن الذي انهزمت فيها العافية وأنهكه المرض، يتحامل عليه لينظر أمته وهي تصلي نظرةَ وداعٍ يتفقد فيها دينها وصلاتها واعظم أركان الدين بعد التوحيد، خرج صلى الله عليه وسلم على المسلمين وهم يصلون خلف ذلك الرجلِ الطيبِ المبارك الخاشع أبي بكرٍ الصديق وهو يقف في موقف الرسولِ صلى الله عليه وسلم يقطع القرآن ببكائه، والصحابةُ يخيمُ عليهم جو من الحزنُ والوجوم لغيابِ رسولِ صلى الله عليه وسلم خمسة أيام عن محرابه الذي طالما وقف فيه يتلو آيات القرآن، فيطلع عليهم فجأة وهم وقوف، فيرفع ستر حجرته ينظر إليهم، فماذا رأى؟

رأى أصحابه وقوفاً كما علمهَم، خشوعاً كما أدبَهم في سماع القرآن حال الصلاة، فرأى المنظر الذي ابتهج به قلبُه، وقرت له عينُه، واطمأنَ إلى أن رسالَته في أيدٍ أمينةٍ، وأن أمتَه واقفةُ على الصراطِ الذي رسَمهُ لها، فإذا بالوجه الشاحبِ من المرض يطفحُ عليه البشر والسرور، فيتهللُ بإشراقةِ ابتسامةٍ وضيئةٍ ما رأى الصحابةُ منظراً كان أعجبَ إليهم منها، حتى قال أنسُ ابن مالكٍ رضي الله عنه: (ما رأينا منظراً كان أعجبَ إلينا من وجهِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، حينَ نظر إلينا يومئذ يضحك، كأن وجههَ ورقةُ مُصحف)، وكاد الصحابة أن يفتتنوا بهذا المنظر، فإذا

بالصفوف تنشق لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليتقدم إلى محرابه الذي طالما وقف فيه، فإذا به يشير إليهم أن أتموا صلاتكم، ويرخي ستر حجرته فكانت أخرَ مرةٍ رأى الصحابةُ فيها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم.

٢/٤ بل إنه صلى الله عليه وسلم إذ كنا نقول أنه حملَ الأمةِ في أخرِ ساعاتِ حياته، فإننا نقولُ الآن إنه حملُ هم الأمة في أخرِ لحظاتِ حياته، إذا به صلى الله عليه وسلم ينفقُ أخرَ الأنفاسِ وأخرَ اللحظاتِ وأخر الثواني نصحا للأمة ونداء للأمة لا ينسى هم أمته وقضيته ورسالته، نزل به الموت فاشتد به الكرب حتى قالت عائشة رضي الله عنها: (ما تمنيت يسر الموت لأحد بعد ما رأيت من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم) لشدة وقع الموت عليه، كان يدخل يده في الإناء الذي فيه الموت ثم يمسح وجهه ويقول: (لا إله إلا الله إن للموت لسكرات، اللهم أعني على هذه السكرات)، لكنَ هذه السكراتِ رغم شدتها لم تلهِ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دعوته ولا عن عقيدته ولا رسالته ولا أمته فإذا به في هذه السكرات ينفذ النداء للأمةِ نداءً يخترقُ حُجبَ التاريخِ وترويه الدنيا في أخر لحظاتِ عمره، ينادينا نداءً شق حُجبَ الزمن حتى أسمعنا: (اللهَ اللهَ، الصلاةَ الصلاةَ وما ملكت أيمانُكم)، حتى حشرجَ بها صدرُه، وغرر بها حلقُه، واحتبسَت بها أنفاسه. إنه هم العمل لدين في أقسى اللحظات وآخر أنفاس الحياة.

٣/٤ أخرج مسلم في صحيحه عن جندب بن جنادة قال: [سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك].

٥= جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه:

هو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي قضي نحوا من إحدى عشرة سنةً في المنفى في دار البغضاء البعداء في الحبشة، لم يأخذ أثنائها إجازة عرضية، ولا مرضية، ولا اضطرارية، بقيَ إحدى عشرة سنةً متواصلةً يعاني ألم الغربة، ولوعة البعاد، كلُ ذلك في ذات الله، حتى إذا حانت الفرصةُ عاد إلى المدينة المنورة في السنةِ السابعةِ للهجرة، عاد في السنة التي فتح فيها النبي صلى الله عليه وسلم خيبر، وما يدريك ما فتح خيبر؟ فتح حيبر كان بداية غنى للمسلمين، ما عرفوا الشبع إلا عندما فتحت خيبر، فتحوا خيبر فكانت عزا للإسلام وفتحا للمسلمين، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم يصف فرحة لقائه بجعفر فيقول: (لا أدري بأيهما أفرح؛ بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر)، فرح النبي صلى الله عليه وسلم بقدوم جعفر فرحا شديدا حتى إن فرحه به يساوي فتح خيبر.

ولكن بما كافأ النبيُ صلى الله عليه وسلم هذا القادمَ مشبعاً بالغربة والبعاد، الذي أعطى للدين عشر سنواتً من الغربة لوعة وأسا، بما كافأه؟ هل أصدر مرسوما كريما بتعيينه أميرا على البلدة الفلانية؟ أم أصدر أمره السامي بتعيين مخصصات له؛ كقصر من القصور، أو مخصصات شهرية منتظمة. هل أصدر أوامره بإحالة جعفر إلى المعاش والتقاعد عن خدمة الدين؟ أو أن يمنح جعفر إجازة لبقية العمر؟

لقد كافأه مكافأة من نوع آخر، كافأه بأن أتاح له الفرصةً مرة أخرى ليعمل للدين، فإذا به يعينه في منصب النائب الأول للقائد الأعلى للقوات المسلحة المتوجهة إلى مؤته، ويذهب جعفرُ فرحاً بهذا المنصب، فرحا بفرصة المشاركة للعمل للدين، فحياته كلها عمل للدين، ليس فيها يوم يسمى إجازة من العمل للإسلام. ويحدث له هناك العجب، إذ يقتل القائد الأعلى زيد بن حارثة، فتتحول المسؤولية إليه، فينزل عن فرسه فيعقرها، فكان أول عقر في الإسلام، ثم يتقدم والراية في يمناه، ينشد نشيد الداخل في الجنة:

يا حبذا الجنةُ واقترابُهـــا طيبـــــةٌ وبـاردُ شرابُها
والروم روم قد دنى عذابُها علي إنْ لاقيتُها ضِرابُها

فتقطع يده اليمنى، فيتلقف الراية باليد اليسرى، فتقطع فيحتضنها بيديه، تنوشه الرماح، تقطعه السيوف، تضربه السهام، وكل ذلك وهو صابر لتبقى الراية مرفوعة، حتى يتقدم منه جندي رومي فيقده بالسيف نصفين، ثم يصف لنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كما في صحيح البخاري مشهد تلك الجثة المعطرة وذلك الإهاب الممزق، فيقول: (وقفت على جعفر يوم مؤتة، وإن في جسده لبضعا وتسعين ضربةً، ليسَ بها واحدةُ في قفاه)، بضعا وتسعين ضربة كلها يتلقاها مقبلا غير مدبر، لم يعرف العدو له قفا ولا رأى له ظهرا. إنها حياة عاملة للدين لا تعرف هدنة في المواجهة مع كل عدو للدين.

ثالثا: شبه يلقيها الشيطان على المسلم أنه ليس من الفئة التي تعمل للدين:

١= قد يذكره الشيطان بخطاياه، ويسائله: هل أنت مؤهل للعمل للدين بكل هذه الأقذار والخطايا التي فيك؟ فما يزال الشيطان يلقي عليه قصيدة هجائه، حتى يستشعر أنه ليس من الفئة التي تعمل للدين، إذ ليس هو أهلا لذلك.

وإليك قصة أبي محجن الثقفي: كان أبو محجن ممن ابتلي بإدمان شرب الخمر، فكان لا يقلع منه، ويؤتى به فيجلد، ثم يعود ثم يجلد، ولكنه لم يفهم أن إدمانه للخمر يعطيه عذرا ليتخلى عن العمل للدين، فإذا به يحمل سلاحه ويسير مع الموكب المتيمن صوب القادسية ليقاتل الفرس، وليرفع لا إله إلا الله، وإذا به يشرب الخمر وهو مع الجيش، ويؤتى به إلى سعد رضي الله عنه ثملا، جندي على مشارف القتال يؤتى به سكران، عاقبه سعد بالحرمان من القتال.

وبدء القتال، فقعقعت السيوف، وأبو محجن تتحرك أشواقه للشهادة وللقتال، فوثب ليشارك فأقعده القيد، وتراه سلمى امرأة سعد، فيقول لها: يا سلمى، فكي قيدي، وأعطيني فرس سعد وسلاحه، فإما أنا رجل قتلت فاسترحتم مني، وإلا والله إن أحياني الله لا أعودن حتى أضع رجلي في القيد، وفعلا تفك قيده، وتعطيه فرس سعد المسماة البلقاء، وتعطيه سلاح سعد، فإذا بميدان المعركة يشهد فارسا يكر فيها يضرب ضرب المحترف، فيعجب سعد ويقول: (أرى الضرب ضرب أبي محجن، والكرَ كر البلقاء، ولكن أبا محجن في القيد، والبلقاء في الآخية).

وتنتهي المعركة، ويسأل سعد عن الفارس الذي رآه كأبي محجن، يضرب من على فرس كالبلقاء؟ ويأتيه جواب زوجته: (هو أبو محجن، وتلك البلقاء)، فقال لها: أما كان في القيد؟ قالت: بلى، ولكن كان من شأنه كذا وكذا، فيُكْبِرُ سعدُ رضي الله عنه هذا الموقف، ويفك قيود أبي محجن بيديه، ويقول له: قم، فو الله لا أجلدك في الخمر أبدا، فقال أبو محجن: سبحان الله، لا أجلد في الخمر؟ كنت أشربها يوم كنت أطّهر بالجلد، أما الآن، فو الله لا أشربها أبدا.

٢= قد يزين له الشيطان أن العمل للدين هو مسؤولية أصحاب اللحى الطويلة والثياب القصيرة، أو منسوبي وزارة الأوقاف، أما أنت فمتلقي فقط، تصلي وتصوم وتحج، هكذا يرجف الشيطان على البعض موسوسا.

٢/١ عبد الله أبن أم مكتوم، الأعمى، رضي الله عنه: هو مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي عذره الله في قرأنه: "لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ"، لم يدع فرصة يخدم فيها الدين تفلت منه، ولو كانت مواقع القتال، فيريد أن يصحب كتائب المسلمين، ويطلب أن توكل إليه المهمة التي تناسبه كأعمى: (إني رجل أعمى، لا أفر، فادفعوا إلى الراية أمسك بها)، ويستمر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كان يوم القادسية كان هو حامل الراية للمسلمين، وكان أحد الشهداء يومها، غشيته الرماح، فلم تصادف فرارا ولا موليا ولا معطي دبره في قتال.

٢/٢ **أنظر إلى الطائر الأعجم الهدهد.** الذي كان يعيشُ في كنفِ سليمانَ عليه السلام، ذلك الرسول وذلك الملك الذي سخر اللهُ له الريحَ، وسخر له الجن، وأتاه ملكاً لم يؤته أحداً من العلمين، لم يقل الهدهد ما دوري أنا بجانبِ هذا الرسول؟ ما دوري أنا بجانبِ هذه الإمكانات؟ ماذا أفعل يكفي أن أبقى طائراً في حاشيةِ الملك، كلا، لقد جاء هذا الطائرُ إلى نبي اللهِ سليمانَ يخاطبه بكل ثقةٍ يقول: (أحطتُ بما لم تحط به)، ثم يصف إنجازه فيقول: (وجئتك من سبا بنباءٍ يقين، إني وجدتُ امرأةً تملِكُهم وأوتيت من كلِ شيء، ولها عرشُ عظيم)، ما هي المشكلة: (وجدتُها وقومَها يسجدون لشمسٍ من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون)، ثم يلقي خطاباً استنكارياً قائلاً: (ألاْ يسجدوا لله الذي يخرج الخبأ في السماوات والأرض). فإذا كان هذا الهدهد قد وجد له دورا، افتعجَزُ أنت بما آتاك الله من ملكات وقدرات أن تجدَ لك دوراً في خدمة هذا الدين والعمل له؟

٣/٢ **ثم أنظر إلى ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة،** قال تعالى: "وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ. إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ. قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ. قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ. وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ. قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ. وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ" (ياسين:١٣-٢١)

أرسل الله إلى تلك المدينة ثلاثة رسل، ليس واحدا ولا أثنين بل ثلاثة، مع ذلك لم يقل هذا الرجل ما دوري بجوار ثلاثة من رسل الله؟، لم يفهم هذا الرجل أن وجود ثلاثة من رسل الله في ميدان واحد يعذره من الدعوة إلى الله، بل دعا مع دعوة ثلاثة رسل، فوجود الدعاة في الساحة، ووجود العاملين في الساحة؛ لا يعذرك في القعود، بل يوجب عليك مسؤولية التعاون معهم، ونشر دعوتهم، وحمل رسالة الله.

٤/٢ **انظر إلى قصة مؤمن آل فرعون.** قال تعالى: "وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ؟ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ؟ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ. يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا؟ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ. وَقَالَ الَّذِي آَمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ. مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ. وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ. يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ" (٢٨-٣٣)

٥/٢ **حتى المرأة لها دور،** من القصص المشرقة في حياة الصحابة وحياة السلف يوم كان الرجل يخرج من بيته فتصحبه المرأة إلى الباب تودعه ببسمة وكلمة طيبة، وتوصيه بتقوى الله وتقول: (يا عبد الله، اتقي الله، فإنا نصبر على الجوع، ولا نصبر على عذاب النار، فلا تطعمنا إلا حلالا)، وليس كحال اليوم، تودعه بقائمة الطلبات.

أخي الكريم: إذا لم تستنفرنا هذه النماذج المشرقة من سير النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فينبغي أن يستثيرنا نفرة أهل الباطل إلى باطلهم، وحماس أهل الباطل لباطلهم،

١= اقرأ قصة لينين ودوره في إنشاء الجمهورية الشيوعية والكيان السوفيتي، تعجب كيف عمل أهل الباطل لباطلهم.

٢= انظر إلى عمل اليهود وتعصبهم وتكاتفهم، كل عملهم يصب في مصب واحد لإقامة دولة إسرائيل.

٣= انظر إلى طلائع حزب البعث العربي الاشتراكي وكيف تربي طلائعها.

٤= أنظر إلى جهود التنصير، كيف يتفاني المنصرون في خدمة قضيتهم، يتركون أوطانهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم، يتركون النعيم والترف في بلادهم الغربية ويذهبون إلى صحراء إفريقيا وأدغالها، أو لجنوب شرق آسيا.

إن العمل للدين ليس وظيفة الأوقاف والدعاة فقط، إنه أمر إلهي لنا ورد في سورة النحل: "ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظةِ الحسنةِ، وجادلهم بالتي هي أحسن"[٢]، وفسرته اللائحة التفسيرية من سنة النبي صلى الله عليه وسلم يوم أن قال: (بلغوا عني ولو آية).

انتهى، ولله الحمد والمنة

[٢] وخُصَّتْ سورة النحل لكونه مخلوق نشيط، لا يكل ولا يمل عن العمل وإنتاج العسل الطيب، وفي مسند أحمد بن حنبل جزء ٢ صفحة ١٩٩، عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (والذي نفسُ مُحمَّدٍ بيده، إن مثَلَ الْمؤْمِنِ لكَمَثَلِ النّحْلَةِ، أكَلَتْ طيِّباً، ووَضَعَتْ طيِّباً، ووَقَعَتْ، فلم تَكْسرْ ولم تفْسِدْ).

قال تعالى: "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ. ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ". فالمولى عز وجل هنا خاطب النحل بصفة الأنثى (اتخذي – كلي – فاسلكي – بطونها) لأن أنثى النحل هي التي تقوم بجمع الرحيق وإنتاج العسل وفي هذا إعجاز علمي للقرآن.

وهناك مقولة لأينشتاين يقول فيها: (لو اختفي النحل من هذا العالم فإن البشر سيتبقى لهم فقط أربع سنوات من الحياة، فعندما يختفي النحل ستتوقف عملية تلقيح الأشجار، وستموت النباتات والحيوانات، ولن يبقى البشر).

وبالفعل: بدأت تظهر ظاهرة أن خلايا للنحل تحتوي على عشرات الألوف من النحل تنتهي خلال أيام، ولا يوجد أي أثر للنحل الكبير لا داخل الخلايا ولا خارجها.

وتم مناقشة الظاهرة في الكونجرس الأمريكي وكون لدراستها مجموعة عمل من الجامعات ووزارة الزراعة ورصد لها ميزانية كبيرة، لأن نحل العسل مسئول عن إنتاج ثلث الغذاء الرئيسي المستهلك، فالنحل مسئول عن تلقيح قرابة٣٠٠ نبات، ابتداء من البرسيم الذي يغذي الحيوانات، وهو مسئول عن تلقيح ثلاثة أرباع النباتات المزهرة في العالم، وأهم أسباب هذه الظاهرة: ١–محطات تقوية المحمول، ٢–رش المبيدات الكيميائية، ٣–تلوث الهواء، ٤–ثقب الأوزون وتسرب الأشعة الضارة من الغلاف الجوي إلى النحل.